

الزمن العصري .. في

قصيدة «الخيول»... دراسة أسلوبية

---

« كانت الخيل بريّة ، تتنفسُ حريةً  
مثلاً يتنفسُها الناسُ  
في ذلك الزمنِ الذهبيّ النبيلِ » .

أمل دنقل

الزمن الشعري  
في قصيدة « الخيول » للشاعر أمل دنقل  
[ دراسة أسلوبية ]

( ١ )

يمثل أمل دنقل ( ١٩٤٠ - ١٩٨٣ ) علامة مميزة على خريطة الشعر المعاصر ، وتتسم أعماله بأنها تتمحور حول موقف محدد هو : الدفاع عن قضايا الوطن ( مصر ) والأمة ( الروبة ) ، فجيل أمل دنقل - هو الجيل الثاني في مسيرة الشعر الحر ، وهو نفس جيل في الدراسات الأدبية والنقدية - خرج إلى الحياة وسط هجير الحرب العالمية الثانية ، وما أشاعته من بؤس وبأس في الواقع العربي ، وشبّ مع نكبة فلسطين التي تجسد محنة العرب ، وتشكل التحدي الحقيقي لإثبات ما إذا كان هناك عرب وعروبة .. أم لا ؟! وقد بلغ هذا الجيل درجة الوعي الشاب مع ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وتطلّع - من خلال الخطب والمواثيق - إلى فجر الحرية والوحدة ، لكنه استيقظ من الأحلام على حقيقة مرة .. هي نكسة ١٩٦٧ ، ورغم الجروح العميقة فإنه لم يفقد إيمانه بمستقبل أفضل .

على هذا فقد بدأ هذا الجيل عمره الفني مع آلام النكسة ، من هنا كان ديوان شاعرنا كله تقريباً عزفاً على سيمفونية الألم والأمل : الألم من واقع مرّ ، والأمل في غدّ ، تسترد فيه صفوف ممزقة بعضاً من هبتها المضيئة .

« أيتها العرافة المقدسة :

جئتُ إليك متخناً بالطعناتِ والدماء

أزحفُ في معاطفِ القتلِ وفوقِ الجثثِ المكْدسة

منكسرَ السيفِ مُفبرَّ الجبينِ والأعضاء .

أسألُ يا زرقاء : عن فمك الياقوت .. عن نبوءة العذراء ، عن ساعدي المقطوع ،

وهو ما يزال مُمسِكاً بالراية المنكّسة »<sup>(١)</sup> .

وقد ظل شاعرنا - حتى اللحظات الأخيرة من عمره القصير وآلامه الكبيرة - ملتزماً حتى الموت

ومستصرخاً عالي الصوت ، حيث يقول :

( ١ ) أمل دنقل : البكاء بين يدي زرقاء الهامة .

ط . دار العودة ، بيروت ، الثانية ، ١٩٧٣ ، ص ٢٥ .

« لاتصالح ، ولو توجّوك بتاج الإمارة  
 كيف تخطو على جثة ابن أبيك .. ؟  
 وكيف تصيرُ المليك على أوجه البهجة المستعارة ؟  
 كيف تنظرُ في يد من صافحوك فلا تبصرُ الدم .. في كل كف ؟  
 إن سهماً أتاني من الخلف ... سوف يجيبك من ألف خلف .  
 فالدمُ - الآن - صارِ وساماً وشارة .  
 لا اتصالح .. ولو توجّوك بتاج الإمارة .  
 إن عرشك سيف ، وسيفك زيفُ  
 إذا لم تزن - بنؤايتك - لحظات الشرف  
 واستطبت الترفُ »<sup>(٢)</sup>

## ( ٢ )

قصيدة « الخيول » - موضوع دراستنا - تعدّ من آخر ما كتب أمل دنقل<sup>(٣)</sup> ، وهي امتداد لموقفه  
 الملتزم الذي عاش به ومات عليه . وسوف ندرس القصيدة على ضوء المنهج ( الأسلوبى ) ، الذى  
 يعنى بدراسة النص ، باعتباره رسالة لغوية يستعين بها الأديب لتوصيل ما يريد من دلالات فكرية  
 وشعورية ، ومن ثم يأتي الدرس الأسلوبى موظفاً مفاهيم علم اللغة العام لمعرفة الخصائص الجمالية  
 للنص الأدبى .

والحرص على دراسة القصيدة بمنهج جديد ضرورة تفرضا ( المعاصرة ) ، التى تفرش جناحها  
 على الأدب والنقد فى وقت واحد ، لأن من الظلم ، بل من الخطأ أن ندرس أدباً جديداً كل الجدة  
 ببلاغة قديمة غاية فى القدم . والجهود العربية التى تربط الدراسة الأدبية بالمنهج الأسلوبى قليلة  
 ولكنها مطردة : يأتي فى مقدمتها كتاب أحمد الشايب عن « الأسلوب » ( ١٩٥٩ ) ، وكتابا لطفى  
 عبد البديع « الشعر واللغة » ( ١٩٦٩ ) و « التركيب اللغوى للأدب » ( ١٩٧٠ ) ، وكتاب  
 عبد السلام المسدى « الأسلوب والأسلوبية » ( ١٩٧٧ ) ، وكتاب سعد مصلوح « الأسلوب »  
 ( ١٩٨٠ ) ، والدراسة المستفيضة لمحمد الهادى الطرابلسى بعنوان « خصائص الأسلوب فى

( ٢ ) أمل دنقل : لا اتصالح .. أو الوصايا العشر .

ط . جمعية الهلال الأحمر الفلسطينى ، بيروت ، ١٩٨١ ص ٢٢ .

( ٣ ) تراجع نص القصيدة فى : مجلة إبداع - العدد الأول ، القاهرة ، يناير ١٩٨١ . والقصيدة من بحر « المتدارك » ،  
 ووجدته المروضية ( فاعلن ) .

الشوقيات « ( ١٩٨٢ ) ، وبعض مقالات متفرقة لأستاذنا شكرى عياد، ثم كتابه « مدخل إلى علم الأسلوب » ( ١٩٨٢ ) . وعلى هدى من هذه المحاولات نحاول دراسة القصيدة .

### ( ٣ )

العنوان بين : الدلالة والرمز :

من أهم السمات الجاهلية التي تميز الشعر المعاصر أن الشاعر أصبح حريصاً على أن يضع ( عنواناً ) لكل قصيدة ، بل لقد انتقل الأمر أيضاً إلى كل ديوان يصدره . فقد كانت القصيدة حتى شوقى وجيله تتشكل من عدة محاور ، وتستوعب أكثر من قضية أو موضوع ، لتكون وفيه - بذلك - لتقاليد عمود الشعر العربي القديم ، وليس غريباً - والأمر كذلك - أن تجلو كثير من قصائد شوقى وجيله من العنوان ، بل إن الديوان نفسه [ الشوقيات ] يحمل تسمية تدل على الشاعر لا على شعره . وقد اختلف الحال لدى كل من الشاعر الرومانسى والمعاصر ( الحرّ ) ، حيث صار العنوان عندهما عنصراً عضوياً في القصيدة ، بل في كل ديوان يصدره على حدة . والشاعر لا يختار العنوان - في قصيدة أو ديوان - اعتباطاً أو مصادفة ، وإنما بعد تأمل لأعماق تجربته ، بحيث يأتي العنوان دالاً بشكل واضح على ما أراد أن يستثيره لدى قارئه .

وعنوان القصيدة - هنا - ليس جملة ذات دلالة رحيبة ، وإنما كلمة واحدة ( الخيول ) ، وهي جمع لاسم جنس هو ( الخيل ) ، وهي كلمة مؤنثة لا واحد لها من لفظها . ويطول الحديث لو تعرضنا للحادثة الأصلية التي اشتقت منها الكلمة ، ولكن ربما أن نشير - فقط - إلى المعنى المشترك بين الخيل والخيلاء والخيالة والخيال والحال والإخالة ، سواء على مستوى الاشتقاق أو الدلالة ، وكلمة الخيول التي هي جمع لكلمة الخيل . ونجد في بعض المعاجم مثل « لسان العرب » و « المصباح المنير » ما يشير إلى أن كلمة الخيل تدل على الفرس والفارس . ولا نريد خشية الإطالة - أيضاً - أن نتطرق إلى كلمات : فرس - فارس - فرسية .. وما توحى به من صفات مادية ومعنوية تدعو إلى الفخر وتستوجب المدح .

وهنا يرد تساؤل مؤداه : ما الفكرة التي ألحت على مخيلة الشاعر وجعلته يختار هذه الكلمة عنواناً للقصيدة دون سواها ؟

هناك - في مجال الارتباط بين الإنسان والحيوان - حيوانات معينة تدل على الشعوب مثل : الفيل : الذى يعد رمزاً للشعب الهندى ، والدب : الذى يعد رمزاً للشعب الروسى . أما بالنسبة للشعب العربى فهناك كلمتان تذكوران في هذا السبيل :

الأولى : الجمل .. الذى تستخدم صورته في بعض البلاد الأجنبية ، دلالة على تخلف الإنسان العربى ، وأنه مازال بجلبابه وعقاله مصراً على التخلف وسعيه به .

الثانية : الحصان .. ويدل إذا استخدم موصوفاً به ( العربى ) على الأصالة والذكاء والقدرة والرفاء . ومعروف أن الخيل العربية تعد من أعظم أنواع الخيل وأغلاها . وفي بعض الآداب غير

المربية قصص كثيرة عن مثاليات الحصان العربي (Le Cheval Arab) . كما أن كلمة الخيل والخيول : ذات تراث تاريخي لدى كل الشعوب القديمة ، لأنها كانت من أهم أدوات النصر في الحروب حتى مطلع النهضة الحديثة ، وأود أن أذكر هنا بالآية الكريمة :

﴿ وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ... ﴾ [ سورة الأنفال .. آية ٦٠ ] .. وبآية أخرى هي : ﴿ زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ .. ﴾ [ سورة آل عمران .. آية ١٤ ] .. كما أود أن أذكر أيضاً بالحديث النبوي الشريف « الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخير » ... كل هذا يوضح أهمية الخيل في الحرب والسلام عند الإنسان العربي ، وأنه إذا كانت أفضل الحيوانات الخيل ، فإن أفضل الخيل هي الخيول العربية .

نتيجة لكل ما سبق : نجد أن الشاعر كان على قدر كبير من الوعي بدلالات الكلمة حين اختارها لتكون عنواناً للقصيدة ، وتصيح بالتالي ( رمزاً ) للإنسان العربي .. أي أن :

الرمز = الخيول .  
المرموز = الإنسان العربي .

وهنا يرد سؤال تالٍ : ما العلاقة بين الرمز والمرموز التي أُلِّت على مخيلة الشاعر ، وجعلته يحمل هذه الدلالة على ذلك المدلول ؟ .

( ٤ )

الزمن الشعري : مفتاح القصيدة :

تنوع المداخل التي يمكن أن نشرع من خلالها في الدراسة الأسلوبية ، وتظل السمة المشتركة بين هذه المداخل هي البدء باللفظة أو منها ، واختيار ( عبارة دالة ) مميزة لفتح وشرح عالم النص كله ، وهذه العبارة تسمى أحياناً العبارة المفتاح ، وقد تكون كلمة أو جملة ، وقد تكون ذات دلالة معنوية أو تركيبية أو صوتية ، وقد تصدر عن المؤلف بوعي أو بدون . والدارس حين يبدأ بهذه العبارة المفتاح فإنه يعود بها ثانية إلى بنية النص ، لكي يفسر الكل على ضوء الجزء ، والسواء على هدى من الانحراف في التعبير . وقد أشار إلى هذه الفكرة أيضاً الناقد الانجليزي « تورنر » في معرض حديثه عن « أصوات اللفظة » . وقريب من هذا أيضاً قول شكري عياد « المدخل الأسلوبى لفهم أى قصيدة هو لفتها ، هذا مبدأ لا يختلف حوله أى من الدارسين الأسلوبيين ، ولكن هذا المبدأ لا يقول شيئاً مهما من الناحية العملية ، فأننا لا أدرى أمام أى قصيدة من أين آتى لفتها : آتيها من جهة اختيار المفردات أو الجمل ؟ وعلى أى أساس أصنف المفردات أو الجمل ؟ وهل يجب على أن أحصيها

لأعرف نسبة لكل نوع إلى الأنواع الأخرى ؟ وما النتيجة التي أطمح في الوصول إليها من وراء هذا المجهود ؟ وينتهي إلى أن : المهم دائماً هو البدء بأبرز السمات اللغوية عساها تضعنا على أول الطريق الصحيح لفهم أسلوب قصيدة «<sup>(٥)</sup>» .

بعد هذه المقدمة النظرية نمود إلى قصيدة « الخيول » فنجد فيها شيئاً لافتاً .. يذكرنا بالقصة الحديثة ، وهو ما يمكن أن نسميه بالزمن الشعري في مقابل الزمن القصصي ، فالزمن - كما تصوّره لغة القصيدة - ليس زمناً تاريخياً يسير في خط طول مستقيم ، وإنما هو زمن نفسي / مستدير / متقطع ، يتشكل من المطلق الأبدي ، والمضارع الحالّي ، والماضي المنتهي . وهذا يذكر بما يُسمى أسلوب « تيار الوعي » Stream of Consciousness في القصة الحديثة .  
والشاعر إذ يستخدم هذه الأزمنة الثلاثة : المطلق ، والمضارع ، والماضي ، لا نجده يذكر أى عبارة تدل على المستقبل الآتي . ويمكن أن تصور الزمن الشعري في القصيدة على هذا النحو :

المضارع + + + + ( موجود بكثرة ) -  
الماضي + + ( موجود بدرجة قليلة )  
المطلق + ( موجود بدرجة أقل ) ← الزمن  
المستقبل - ( منعدم الوجود )

وأهمية الزمن في القصيدة يعكسها أمران :

الأول .. معنوي : يرجع إلى أن صورة الزمن في القصيدة تعتمد على التداخل النفسي ، وليس على التابع التاريخي ، من هنا نجد في القصيدة تكتيكاً أسلوبياً يشبه طريقة « الاسترجاع » Flash-Back في القصة ، حيث نجد الشاعر يزاوج بين ماضي الخيول وحاضرها ليحدث نوعاً من التقابل أو التضاد ، ليصور - بوضوح - ما يمكن أن نسميه ( جدل الظاهرة ) ، فتبدو المفارقة في شيء من الحدة بين ماضٍ عظيم وحاضر عقيم في تاريخ الخيول ( الرمز ) ، وبالتالي في تاريخ الإنسان العربي ( الرموز ) ، الذي يقف في الزمن ( الحاضر ) موقف ضعيفٍ وتخاذل ، لا يتناسب مع قوة ( الماضي ) وعظمته .

الثاني .. والأهم وهو مدخلنا إلى الدراسة - أمر لغوي : حيث نجد في القصيدة بعض تعبيرات دالة على الزمن هي : الزمن الذهبي - زمن يتقاطع - ينحدر الأسس - جسد الذكريات - استدارت مژولة الوقت .

ولعل أهم هذه التعبيرات هي جملة : زمن يتقاطع - التي تمثل ( الجملة المفتاح ) التي تقودنا إلى فهم عالم القصيدة . ويقوى هذه الظاهرة اللغوية ... الكثرة الواضحة في استخدام الأفعال : مضارعة ، وماضية ، وأمر .

( ٥ ) شكرى عياد : مدخل إلى علم الأسلوب .

ط . دار الطرم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٨ .

وسوف نحاول شرح ذلك بشيء من التفصيل ، حتى نوضح علاقة الزمن الشعرى في ( القصيدة )  
بالزمن الخارجى في ( الواقع ) .

## ( ٥ )

الزمن الماضى :

سوف نحاول ترتيب الصورة العامة للزمن التى قدمها الشاعر - دون حرص على الترتيب الفنى للزمن فى القصيدة ، حتى نبرز بشكل منطقى الدلالات التى حرص الشاعر على إثارتها ، ذلك أن الشاعر - وهو يبدع - غير مطالب بأن يراعى المنطق المألوف للأشياء ، بينما الناقد - وهو شارح ومفسر ، أو كما يمكن أن نقول : قارئ متخصص للقارئ العام - عليه أن يشرح النص بطريقة تجعله قريب الفهم مقدور التدقيق .

وسوف نبدأ بالحديث عن صورة الزمن الماضى - ماضى الخيول ، الذى يشرع الشاعر فى التعبير عنه مع بداية المقطع الثانى من القصيدة ، ويقول :

« كانت الخيلُ - فى البدء - كالناسِ ..

بريةً ، تتراخضُ عبرَ السهولِ .

كانت الخيلُ كالناسِ فى البدءِ .. [ لاحظ التكرار ]

تمتلك الشمسَ والعشبَ والملكوتَ الظليلِ

ظهرها لم يوطأ لكى يركبُ القادةُ الفاتحون

ولم يلمن الجسدُ الحرَّ تحتَ سياطِ المروضِ .

والفم لم يمتثلُ للجامِ

ولم يكن الزادُ بالكادِ

لم تكن الساقُ مشكولة

والخوافرُ لم يكن يثقلها السنبكُ المعدنُ الصقيلُ

كانت الخيلُ بريةً ، تتنفسُ حرية

مثلما يتنفسها الناسُ فى ذلك الزمن الذهبى النبيلِ » .

فالشاعر - هنا - يصور ماضى الخيول ، حين كانت برية تتنفس حرية ، تمتلك الشمس والعشب والملكوت ، ولم يكن زادها بالكاد ، ولم يكن ظهرها موطناً ولا قمها ملجأً ولا ساقها مقيدةً ولا حرافرها مثقلة . ومن الواضح أن الشاعر يربط فى نهاية الفقرة بين الرمز والمرموز ، فقد كانت الخيل تتنفس حرية مثلما يتنفسها الناس فى ذلك الزمن الذهبى .

ومن الملاحظ في هذا الجزء أن الشاعر يستخدم أثناء الحديث عن الماضي :  
الفعل المضارع المنفى بـ لم ( وهي : حرف نفى وجزم وقلب ) ، في خمس جمل متتالية . وهنا  
نلاحظ أن الشاعر يتحدث عن الماضي كثيراً بالفعل المضارع ، وقد يكون هذا الفعل المضارع :

( أ ) مسبقاً بالفعل الناقص : كانت الخيل تمتلك الشمس .

( ب ) أو مسبقاً بحرف نفى : لم يلبس الجسد الحر .

( جـ ) أو مضارعاً حقيقياً ولكنه يدل على الماضي : ينحدر الأمل .

وهذا التعبير عن الماضي بالمضارع يدل - من حيث القيمة البلاغية للتعبير - على أن ذلك الماضي  
المجيد لم يمض ، وإنما هو حيٌّ يشكل ذكريات أشهرت شوكتها كالتفانذ ، وسلخ الخوف بشرتها .. وهذا  
يمهد لأن يختم المقطع الخاص بالحديث عن الماضي .. قاتلاً :

« فاركضى أرقى »

كل درب يقدوك من مستحيل إلى مستحيل .»

## ( ٦ )

الزمن المضارع :

يشكل الزمن المضارع جزءاً كبيراً من بنية القصيدة ، ويبدأ بعد خمسة سطور - يستغرقها الزمن  
المطلق - من البداية . والبدء بالحديث عن الحاضر دلالة على أهميته بالنسبة للشاعر ، وبالتالي  
لجمهوره المتلقى الذي يريد أن يصدر إليه موقفه . بيد أن الشاعر حين يشرع في تصوير الزمن الحالي  
للخيل ، لا يقدمه بشكل مباشر ، وإنما عن طريق فعل ماضٍ / جامد / ناقص / منفي ، فيقول :

« أيتها الخيل : لستِ المغيراتِ صُبحاً

ولا العادياتِ - كما قيل - صُبحاً

ولا خضرةً في طريقك تمحى

ولا طفلاً أضحى

إذا ما مررتِ به .. يتحى .»

ويلاحظ في هذه الفقرة تكرارُ النفي ، لتثبيت دلالاته بالنسبة للحاضر لا تعارب فيه الخيول ، وإنما  
تركض « كالسلاحف نحو زوايا المتاحف » . والشاعر يقدم هذه الصورة الساخرة عبر فعل آخر  
[ ناقص ] جاء على صورة الأمر ، وقد استخدمه في فقرة واحدة أربع مرات تأكيداً لصورة باكية /  
مبكية ، يلح في تصويرها بشكل مؤكد عن طريق ( التكرار ) ، الذي يعدُّ من السمات الواضحة في  
جماليات القصيدة المعاصرة :

« صيرى : تماثيل من حجر في الميادين .  
 صيرى : أراجيح من خشب للصغار الرياحين  
 صيرى : فؤاس حلوى بموسمك النبوى  
 وللصية الفقراء : حصاناً من الطين  
 صيرى : رسوماً .. ووشها  
 تجف الخطوط به مثلما جف - في رنتيك - الصهيل » .

هكذا تتحول الخيول الغازية الفاتحة ( على مستوى الرمز والمرموز ) إلى تماثيل ورسوم ودمى من  
 الحلوى أو الطين .

ويستمر الشاعر في تقديم الصورة الحالية للخيول بطريقة غير عادية في التركيب ، حيث يأتي الجزء  
 المكمل للصورة عن طريق أسلوب الاستفهام الذى خرج عن معناه الأصيل إلى السخرية والتعجب :

« ماذا تبقى لك الآن .. ماذا ؟

سوى عرق يتصبب من تعب

يستحيل دنائير من ذهب :

في جيوب هواة سلاتك العربية

في حلبات المراهنة الدائرية

في زهرة المركبات السياحية المشتهاة .. وفي المتعة المشتراة

وفي المرأة الأجنبية تملوك تحت ظلال أبي الهول

هذا الذى كسرت أنفه لعنة الانتظار الطويل » .

ولعل أكثر هذه الصور الشائنة مرارة بالنسبة لحاضر الخيول هي الصورة الأخيرة : فبعد أن كانت  
 ظهور الخيول معدة للفؤارس الفاتحين / المدافعين صارت موطأ للمرأة الأجنبية . هكذا يتبوأ مكان  
 الفارس العربى امرأة سائحة تختال بالخيول تحت ظلال أبي الهول . كذلك يأخذ الشاعر حقيقة واقعة  
 ليقدمها على سبيل الاستعارة المكنية - إمعاناً في السخرية والتشاؤم - إذ من المعروف أن عوامل  
 التعرية كسرت أنف أبي الهول ، ولكن الشاعر يقدم الفكرة على أساس أنها صورة مجازية [ كسرت  
 أنفه لعنة الانتظار الطويل ] . فالشاعر هنا قد نقل اللغة من الحقيقة إلى المجاز ، وصور الواقع بدرجة  
 تسمح بالسخرية منه والسخط على الراضين به .

## ( ٧ )

غياب الزمن المستقبل :

ذكرنا أن عنصر الزمن يشكّل المحور العام للقصيدة ، وأهم مرحلتين يحرص الشاعر على تصويرها هما : الماضى والحاضر ، ويقدمها بدرجة من التداخل والامتزاج توحي بما بينها من تقابل وتضاد : سواء على مستوى المعنى أو الصورة أو التركيب اللغوى ، حيث يستخدم الشاعر أحيانا الفعل المضارع للدلالة على الماضى ، من ذلك على سبيل المثال :

[ لاحظ التكرار ]

« تنحدر الشمسُ

ينحدرُ الأُمسُ

تنحدرُ الطرقُ الجبلية للهوة اللانهائية » .

كما يوظف الفعل الماضى للدلالة على المضارع مثل قوله :

« استدارتُ - إلى الغرب - مزولة الوقت

صارت الخيلُ ناسًا تسيرُ إلى هوة الصمتِ »

ومن خلال الحديث عن الماضى والحاضر بحثاً عن المستقبل فى القصيدة تتضح عدة ملاحظات :

الأولى : العبارات الدالة على الحاضر تبلغ نسبتها ضعف العبارات الدالة على الماضى [ ٢٦ - ١٣ = ٥٠ - ١٠٠ ] ، وربما كان سر ذلك هو أن هوم الشاعر كلها مرتبطة بحاضر متخاذل يريد تغييره ، بينما الماضى مجرد منير يبرز حدة التناقض بين ماضٍ عظيم وحاضر عقيم .  
الثانية : الاقتباس أو التضمين لا يظهر فى القصيدة إلا أثناء التعبير عن الماضى ، حين يقول :

« أيتها الخيلُ .. لستِ المفيراتِ صُبْحًا

ولا العادياتِ - كما قيل - صُبْحًا » .

فالاقتباس - هنا - من الآيات الكريمة ﴿ والعادياتِ صُبْحًا ، فالمورياتِ قُدْحًا ، فالمفيراتِ صُبْحًا ﴾ [ سورة العاديات - الآيات من ١ - ٣ ] .. وفى ربط ماضى الخيول بالقرآن الكريم إيحاء يمدى قداسة الماضى وعظمته ، حتى يفكر أصحاب الحاضر فى استعادة الماضى المجيد .

الثالثة : إن درجة التعادل فى التعبير بين الماضى والحاضر غير متكافئة فى بنية القصيدة غير أن كليهما موجود .. ولكن الحديث عن المستقبل مفتقد دائماً وغائب غائباً كلياً ، مما يشى بقدر من التشاؤم المتخيل عند الشاعر . إن ضعف الخيول - التى هى رمز للأمة - جعل الشاعر لا يرى

لستقبل مشرق .. قوى .. قادر أية بارقة ، لذلك حجب الحديث عنه كلية في القصيدة .  
الذكر والحذف - في القصيدة - إذن له ما يبرره فنياً ، وبلاغة الحذف لا تقل قيمة عن  
بلاغة الذكر . وعلى هذا فقد يكون الصمت لغة والتجاهل موقفاً . وحجب الحديث عن المستقبل في  
القصيدة - هنا - حذف مقصود له ما يبرره في الواقع .

## ( أ )

الزمن المطلق :

هناك بعض عبارات ترد في : مطلع القصيدة ، وبُعْد المنتصف خالية من الارتباط بالزمن .. هي  
قوله :

( أ ) « الفترحات - في الأرض - مكتوبةً بدماء الخيول

وحدود الممالك .. رسمتها السناكب

والركابان ميزانٌ عدلٌ يميل مع السيف حيث يميل »

( ب ) « الخيول بساط على الريح ..

سار - على منته - الناس للناس عبر المكان

والخيول جدارٌ به انقسم الناس صنفين :

صاروا مشاة وركبان » .

هاتان الفقرتان تتكونان من جملتين طويلتين نسيباً ، وكلاهما تتركب من :

١ - جملة اسمية + جملة اسمية أو أكثر ( معطوفة ) .

٢ - الاسمية في الجمل تغلب على ركني الجملة : المبتدأ والخبر - سواء أكانت الجملة ابتدائية أم

معطوفة .

٣ - شيوع الاسمية في التركيب هو الذي يُبهدا عن الارتباط بالزمن من حيث الدلالة .

كما يلاحظ أن هذه الجمل - من حيث المعنى - تقدم حكماً أو أقوالاً مأثورة تأخذ طابع

( الإخبار ) ، والخبر في كلتا الفقرتين - كما يقول البلاغيون القدماء لازم الفائدة ، فالشاعر في

غمرة يأسه من حاضر الخيول ، يتصور أن الناس قد نسيت الأمور البديهيّة في الحياة ، لذلك يقدم لهم

هذه الحكم والأقوال - في نسق لغوي - وكأنه يقدم لهم حقائق لم يكونوا يعلمونها .

والشاعر إذ يقدم تلك الحكم - في هذا السياق الدلالي غير المرتبط بزمن - يخبر بحقائق مؤكدة

هي :

- الفترحات لا تُكتب بغير الدماء .

- العدل لا يتحقق بغير السيف .

- الخيول هي المعبر الوحيد من مكان إلى مكان ، أو من حالة ( ذل ) إلى حالة ( نصر ) .

— الخيول جداراً فارق ، ينقسم الناس به صنفين : مشاة وركبان .. جنباء وشجعان .. مهزومين  
ومنتصرين .

أمر آخر نود أن نلفت النظر إليه لإظهار أهمية هذه العبارات ، فالفقرة الأولى ( أ ) تمثل مطلع  
القصيدة أو افتتاحيتها . وقد تحدث النقاد العرب كثيراً عن أهمية المطلع ، ورأوا أنه يؤذن بجودة  
القصيدة أو قبحها . وفي هذا يقول ابن رشيق القيرواني ( ٣٩٠ - ٤٥٦ هـ ) « إن الشعرَ قُفْلُ أوله  
مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره ، فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يُستدل على ما عنده  
من أول وهلة .. لأن حسن الافتتاح داعية الانسراح ، ومطية النجاح »<sup>(٦)</sup> .

ولا شك أن الشاعر حين يبدأ قصيدته بهذه الحكمة يريد أن يشير إلى أهميتها ، ثم تحيء الفقرة  
الثانية (ب) بعهد المنتصف حتى يذكر قارئه مرة ثانية بما يريد أن يؤكد عليه من قيم ومبادئ .  
وعلى هذا فإن هذه الجمل - من حيث التركيب اللغوي والدلالة البلاغية والزمنية .. ومن حيث  
ترتيب مكانها في القصيدة ، جمل مفرغة من الدلالة على الزمن ، وهي ( البديل ) عن الزمن  
المستقبل . ويبدو أن الشاعر أراد أن يشير - ولو من بعيد - إلى أن تحويل المستقبل إلى ممكن ،  
والمطلق إلى مستقبل ، يتطلب من البشر قدراً كبيراً من النضال والكفاح . وهذه الرؤية المستنيرة  
الداعية إلى تجاوز الضعف والهزيمة ، تتسق والموقف الملترزم الذي يعبر عنه أمل دنقل في شعره  
دائها .. من ذلك قوله في قصيدة بعنوان « لا وقت للبكاء » :

« والتين والزيتون

وطور سنين ، وهذا البلد المحزون

لقد رأيت ليلة الثامن والعشرين .. من سبتمبر الحزين

رأيت في هتاف شعبي الجريح

رأيت خلف الصورة .. وجهك يا منصور

وجه لويس التاسع المأسور في يدئ أصبح

رأيت في صبيحة الأول من تشرين

جندك يا حطين ييكون ، لا يدرون

أن كل واحد من الماشين فيه .. صلاح الدين »<sup>(٧)</sup> .

(٦) أبو الحسن بن رشيق : الصلدة في بحاسن الشعر وأدابه ونقده : تحقيق : يحيى الدين عبد الحميد .

ط . المكتبة التجارية ، القاهرة : ١٩٦٣ ، ج ١ ص ٢١٧ .

(٧) أمل دنقل : تعليق على ما حدث .

ط . دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٠٦ .

( ٩ )

علاقة الزمن الشعري بالزمن الواقعي :  
 لعله قد اتضح من خلال هذا التحليل الأسلوبى لعنصر الزمن - الذى يشكل المحور الأساسى لبنية القصيدة - عدة أمور :

- ١ - الزمن الحالى يمثل العنصر الأكبر الذى اهتم به الشاعر .
- ٢ - الزمن الماضى موجود بدرجة تصل إلى ٥٠% بالنسبة لصورة الزمن الحالى .
- ٣ - الزمن المستقبل مغيب تماماً فى القصيدة .
- ٤ - الزمن المطلق موجود بدرجة أقل من الماضى ، وينوب المطلق عن المستقبل فى القصيدة ويحل محله من حيث كونه يشكل المثال المنشود ، الذى يريد الشاعر - بقصد والتزام - أن يلفت انتباه أبنائه أمته إليه .

وعلى هذا يتضح أن عنصر الزمن الذى أوجت به ودلت عليه جملة [ زمن يتقاطع ] ، يصلح أن يكون مدخلاً أسلوبياً لتفسير قصيدة يرمز فيها تاريخ الخليل لرموز أوسع ، هو تاريخ أصحاب الخليل ( الشعب العربى ) ، والعناية بالزمن أو التاريخ هو الذى يجعل هذه القصيدة قصيدة سياسية . وعناية الشاعر بإبراز خصوصية الحاضر فى جدله مع الماضى يؤكد حرصه على تجاوز الضعف والتفكك والهوان . والشاعر - كما يبدو من خلال القصيدة - محزون ومزرق على الحاضر الأليم : حاضر الخيول والناس ، أو حاضر الرمز والرموز . ولكى يتغير هذا الحال إلى حال أفضل ، لابد من التذكير بالماضى والتلميح بمستقبل منشود ، من خلال الحديث عن المطلق والمثال .

وعلى هذا فإن الزمن الشعري فى قصيدة الخيول - التى يلتخم فيها الرمز بالرموز - معادل موضوعى للزمن الواقعي [ أو التاريخ المعاصر ] ، يعكس حركته الحقيقية ، ويعبر عن كل آلامه وبعض آماله .

## الخِيُول .. أصل دُنُقُل

( ١ )

الفتوحات - في الأرض - مكتوبةً بدماء الخيول  
وحدودُ الممالك  
رسمتها السنايك .  
والرُكبان : ميزانُ عدلٍ يميل مع السيف ..  
حيث يميل !

\*\*\*

اركضى أوقى الآن .. أيتها الخيلُ :  
لستِ المفيراتِ صُبحا  
ولا العادياتِ - كما قيل - صُبحا  
ولا خضرةً في طريقك تُحمى  
ولا طفلٌ أضحى  
إذا ما مررتِ به .. يتنحى ؛  
وها هي كوكبةُ الحرسِ الملكى ..  
تجاهدُ أن تبعثَ الروحَ في جسدِ الذكرياتِ  
بدقِ الطبولِ .  
اركضى كالسلاحفِ  
نحو زوايا المتاحفِ ..

صيرى تمائيلَ من حَجَرٍ في الميادينِ  
صيرى أراجيعَ من خشبٍ للصفارِ الرياحينِ ،  
صيرى قوارسَ حُلوى بمُوسمِ النبوى ،  
وللصبيةِ الفقراءِ : حِصانًا من الطينِ  
صيرى رسوماً .. ووشماً

تجفُّ الخطوطُ به  
مثلاً جفَّ - في رثيتك - الصهيل !

( ٢ )

كانت الخيلُ - في البدءِ - كالناسِ  
بريةً تراكضُ عبرَ السهولِ  
كانت الخيلُ كالناسِ في البدءِ ...  
تمتلكُ الشمسَ والعشبَ  
والملكوتَ الظليلَ  
ظهرها .. لم يُوطأَ لكى يركبَ القادةُ الفاتحون ،  
ولم يلمن الجسدُ الحرَّ تحتَ سياطِ المروضِ  
والفمُ لم يمتلِ للجامِ ،  
ولم يكن الزادُ .. بالكادِ ،  
لم تكن الساقُ مشكولةً ،  
والخوافرُ لم يكُ يتقلها السنيكُ المعدنيُّ الصقيلُ .  
كانت الخيلُ بريةً  
تتنفسُ حُريةً  
مثلاً يتنفسُها الناسُ  
في ذلك الزمنِ الذهبيِّ النبيلِ

\*\*\*

اركضى .. أوقفى  
زمنٌ يتقاطعُ  
واخترتِ أن تذهبي في الطريقِ الذي يتراجعُ  
تنحدرُ الشمسُ  
ينحدرُ الأمسُ  
تنحدرُ الطرقُ الجبليةُ للهوةِ اللانهايةِ :

## الشهب المتفحمة

الذكريات التي أشهرت شوكتها كالقنافظ  
والذكريات التي سلخ الخوف بشرتها .

كل نهر يحاول أن يلمس القاع  
كل الينابيع إن لمست جدولاً من جداولها

تختفى

وهي .. لا تكفى !

فاركضى أوقفى

كل درب يقودك من مستحيل إلى مستحيل !

( ٣ )

الخيول بساط على الريح ..

سار - على مته - الناس للناس عبر المكان

والخيول جدار به انقسم

الناس صنفين :

صاروا مشاة .. وركبان

والخيول التي انحدرت نحو هوة نسيانها

حملت معها جيل فرسانها

تركت خلفها : دمة الندم الأبدى

وأشباح خيل

وأشباح فرسان

ومشاة يسرون - حتى النهاية - تحت ظلال الهوان .

اركضى للقرار

واركضى أوقفى في طريق الفرار .

تساوى محصلة الركض والرفض في الأرض ،

ماذا تبقى لك الآن ؛

ماذا ؟

سوى عرقٍ يتصبَّبُ من تعبٍ  
 يستحيلُ دنائيرَ من ذهبٍ  
 في جيوبِ هُوَاةٍ سلااتكِ العربيةِ  
 في حلباتِ المراهنةِ الدائريةِ  
 في نزهةِ المركباتِ السياحيةِ المشتهاةِ  
 وفي المتعةِ المشتراةِ  
 وفي المرأةِ الأجنبيةِ تعلقكِ تحتِ  
 ظلالِ أبي الهولِ ..  
 ( هذا الذي كسرتِ أنفَهُ  
 لعنةُ الانتظارِ الطويلِ )

( ٤ )

استدارتُ - إلى الغربِ - مزولةُ الوقتِ :  
 صارت الخيلُ ناساً تسيرُ إلى هُوَاةِ الصمتِ  
 بينما الناسُ خيلٌ تسيرُ إلى هوةِ الموتِ !